

رائعتان شعريتان جديدتان لمحمد بن

وقفتُ أمام بابك

وَقَفْتُ أَمَامَ بَابِكَ يَا قَرِيبُ وَمَنْ يَلْجَأُ لِبَابِكَ لَا يَخِيبُ
وَلَسْتُ بِمَحْدِثٍ أَمْرًا غَرِيبًا وَلَسْتُ أَنَا عَلَى الْبَابِ الْغَرِيبُ
أَتَيْتُكَ وَالْهَاءُ دَنِفًا مَشُوقًا حَبِيبِي أَنْتَ يَا نِعْمَ الْحَبِيبُ
وَتَعْلَمُ أَنَّي بِكَ مُسْتَجِيرٌ وَشَعْرِي دُونَ ذِكْرِكَ لَا يَطِيبُ
وَحَسْبِي أَنْ عَفْوَكَ بِي مُحِيطٌ وَمَنْ آثَارِ جُودِكَ لِي نَصِيبُ
فِيَا مَنْ خَيْرُهُ شَمْلُ الْبِرَايَا لَكَ التَّقْدِيسُ بِاسْمِكَ يَا مُجِيبُ
وَمَنْ مِنْ أَمْرِهِ الْأَكْوَانُ تَجْرِي عَلَى نَسْقٍ هُوَ النَّسْقُ الْعَجِيبُ
خَلَقْتَ رَزَقْتَ صُنْتَ وَهَبْتَ جُودًا غَفَرْتَ رَحِمْتَ فَضْلُكَ لَا يَغِيبُ
بَعَثْتَ لَنَا مُحَمَّدَ خَيْرِ هَادٍ وَنَحْنُ إِلَى هُدَى الْهَادِي نُنِيبُ
تَخِذْنَا الشَّرْعَةَ السَّمْحَاءَ نَهْجًا وَحَسْبِي أَنْتَ يَا نِعْمَ الْحَسِيبُ

ابتهاال
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْوَلَدِ

فن شعري بديع

■ **الابتهالات والتواشيح تدخل ضمن المدائح فمنها الديني ومنها الصوفي**

■ **محمد بن راشد يوظف شهر الخير لنشر الفضائل وسرد سير الصالحين**

العجيب أن يفاجئنا في كل مرة بجديد، فهو اليوم طرق باب الابتهاال بقوة، وأغرقنا في مفردات ومصطلحات جديدة من نوعها بشدة، وما أدراك فلعل القادم أكثر وأكثر، وهل هناك أجمل من وقوف حاكم أمام باب رب العالمين متضرعاً.

مصطلحات

انظر إلى مفرداته ومصطلحاته الجديدة: وقفت/أمام بابك/ يا قريب/يلجأ/لا يخيب/أتيتك/والهاً/دنفاً/حبيبي/ بك مستجير/ وحسبي/ عفوك/ جودك/ مجيب/ خلقت/ رزقت/ وهبت/غفرت/ رحمت.

هذه المصطلحات التي تتردد بين الدينية والصوفية بهذه الكمية، مصطلحات جديدة في شعر الشيخ محمد بن راشد، ولا سيما أنها ارتبطت بشهر الصوم شهر العبادة والتجليات، فهو يستحضر فيه عظمة ما في هذا الشهر من عبر ومواقف ومشاهد وتجليات ومكارم والناس مهيؤون، كيف لا وهو شهر الصيام

قصائد روحانية
نعم؛ الابتهالات والتواشيح تدخل ضمن أنواع المدائح، فمنها الشعر الديني ومنها الشعر الصوفي، ومنها الدعاء والحكم، والابتهاال والتوشيح وإن كانا قريبين من بعضهما في المعنى، إلا أن التوشيح فن أندلسي أصيل، وعرف بعد ذلك في مصر والشام، والشاعر يمكن أن يتقيد في التواشيح بقافية واحدة، ويمكن أن يكتب قصيدته بقواف متعددة.

أجل.. والابتهاال والتوشيح والإنشاد قد تبدو بأنها مترادفات، إلا أن الفرق بينها أن الابتهاال دعاء من غير آلات موسيقية، والإنشاد يكون بالآلات موسيقية وبغير آلات، وبما أن الابتهاال والإنشاد يناسبان شهر الصيام فإن الشاعر الكبير الشيخ محمد بن راشد، قدم لنا في هذه المرة قصيدتين منذ بداية رمضان روحانيتين جداً، لنبتهل بهما إلى الله عز وجل في هذا الشهر الفضيل.

وليس العجيب أن يقدم لنا قصيدتين في وقت معاً، وإنما

الابتهاال من الفعل ابتهل يبتهل ابتهالاً إلى الله، أي دعا وتضرع وطلب العون، وجميل من الحاكم أن يقف أمام باب الله، ويطلب العون منه لعلمه أنه الأقوى والأكرم والأعظم فهو كما قال شوقي:

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء

والابتهاال من حيث هو فن شعري بديع، وسنة حميدة لا يلجأ إليه إلا المؤمن القريب من ربه الذي يستشعر عظمة الله في سره وجهره، وهو سنة الأنبياء من قبلنا، وعلى سبيل المثال انظر إلى نبي الله عيسى عليه السلام، حيث قال الله على لسانه:

«إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

وفي الحديث «أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لما تلا هذه الآية رفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره الرسول بما قال - وهو أعلم - فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»، رواه مسلم.



بقلم:
د. عارف الشيخ

تجليات الوجد في ابتهاال «وقفت أمام بابك»

العبادات تفلح إن أورتك التعلق بالله حد الشغف والوله والوجد، ولعل ذلك ما كانت تعنيه الدنفة المشوقة رابعة العدوية حينما أشادت تقول هي الأخرى:

أحبك حين: حبّ الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

ومما يستلفت في قصيدة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد محل التأمل هنا «ابتهاال وقفت أمام بابك» أنها موجة، بمعنى أنها تخرجك من الصوفية المحضة إلى الشعر المحض وفسيفاء اللغة، ومن علم الحقيقة إلى علم الشريعة، وهذه الالتفاتة الأخير نلمسها في خواتيم القصيدة، حينما تجنح القصيدة نحو عالم الشهادة، ومن التوق إلى الملكوت ومناجاة الذات العلية إلى بوح الواقع المعيش، حيث يخاطب ربه بلغة الواقع الموضوعي الملموس. إلى أن يقول معتزلاً بآلاء الله عليه ككل عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا:

خَلَقْتَ رَزَقْتَ صُنْتَ وَهَبْتَ جُودًا غَفَرْتَ رَحِمْتَ فَضْلُكَ لَا يَغِيبُ

وهذه لعمرى انتباهة مهمة، خاصة لمن شاء أن يزجي دعوته إلى عامة الناس وخاصتهم معاً، مستحثاً خطى القرب إلى الله عز وجل، ثم إليه تارات وتارات، من خلال الترفي في المقامات، ولا يمكن بلوغ الحقيقة وحق اليقين دون المرور عبر الصراط المستقيم، المبين للقاصي والداني، وذلك هو مقصد قوله: تخذنا شرعة الإسلام نهجاً. فأنعم به من نهج، هذا من تأويل ما لمسناه.

مختلف عن الأقوال الفلسفية التجريدية التي انتهجها النفري فشطح، حيث جمع سموه بين الحسنين: الشعر بجماليات لغته، والوجد الصوفي، مع مسحة فلسفية غير موعلة في الغموض الفلسفي، وعياً منه بأنه منفتح على عامة الناس:

وَقَفْتُ أَمَامَ بَابِكَ يَا قَرِيبُ وَمَنْ يَلْجَأُ لِبَابِكَ لَا يَخِيبُ

جمال الشعر الصوفي ههنا يتجلى في إثبات القرب قبل الوصل، فال محبوب، عز وجل، قريب قبل التقرب إليه، وقبل أن بطرق الشاعر بابـه طلباً للوصل، فأَي مقام من مقامات القرب يطلب المحب؟ فلقد أثبت قربه، ويريد قريباً مزيداً. هذا المزيد نفسه لا نستطيع أن نقول إنه لن يتحقق طالما أنه متحقق أصلاً! لأن الشاعر يؤكد أنه قرب آخر، وممكن، لأن من يلجأ لباب الله، سبحانه وتعالى، في كل الأحوال لا يخيب أبداً. أليس هذا موقفاً غريباً؟

يجيب الشاعر عن استغرابنا من طلب القرب إلى حبيب قريب في الأصل بالقول:

وَلَسْتُ بِمَحْدِثٍ أَمْرًا غَرِيبًا وَلَسْتُ أَنَا عَلَى الْبَابِ الْغَرِيبُ

كيف إذْ ورب السماء؟ أليس هو الوجد الصوفي صرفاً، وإنها لمواقف وتجليات يجل وصفها، بدليل أن الشاعر عبر عن التطيب بالذكر وليس التقرب به فقط:

أَتَيْتُكَ وَالْهَاءُ دَنِفًا مَشُوقًا حَبِيبِي أَنْتَ يَا نِعْمَ الْحَبِيبُ

إن حب الذات الإلهية عبادة تسمو على العبادات، بل إن سائر

قراءة: د. محمد سبيل

صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، رعاه الله، يحيي بمأثرته الشعرية الجديدة هذه فناً كاد يذوي في زمان الناس هذا، ألا وهو فن الابتهالات الدينية باللغة الفصحى، فلقد كانت يوماً مما يثري الوجدان الإيماني، ويستعرض الرقائق التي تبث نور اليقين بالله عز وجل في النفس المؤمنة حتى تستحيي من عصيان ربها، ولا أعرف كثيراً ممن يولون كبير عناية بهذا الضرب من ضروب الثقافة والأدب اليوم، وأي إحياء؟!

إحياء التراث

إنه إحياء يستنفر جماليات التعبير التي تطرق لها العارف بالله الشيخ محمد بن عبد الجبار النفري، صاحب «المواقف والمخاطبات»، فهو عادةً ما كان يستهلها بالقول: «أوقفني في كذا وكذا وقال لي»، وهو في ذلك يخاطب ربه سبحانه وتعالى، وجداً وتجلياً داخل عوالم النفس المطمئنة، فمثلاً مما يقول النفري: «أوقفني في الصفح الجميل، وقال لي: لا ترجع إلى ذكر الذنب، فتذنب بذكر الرجوع».

جمع الحسنين

أما ما يقدمه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد في قصيدته الابتهاالية المنحازة إلى الروح الصوفية الراكزة في الوجد، فهو

بن راشد بمناسبة شهر رمضان المبارك

مُقامي.

مُقامي عند مَنْ عرفوا مُقامي

وتَسليمي سلاماً مَنْ سلام

عَرمْتُ بذاتهِ عَرمي غراماً

رجاً أَرْجوه يا مَنْ تَرتجيه

مقامي عندَ بابك يا كَريماً

ومنكَ الخيّر يُرجى يا مُغيثاً

ولولا حِلْمُهُ قُضتِ البرايا

ولولا عَفْوُهُ ما دامَ حَيّ

وأعجَبُ مَنْ تَلَطَّفه بعبِد

تباركَ ذِكرُهُ جوداً وفضلاً

قياماً حيثُ همّ شهدوا قيامي

سَلامُ اللهِ مِنْهُ بدا سلامي

وقَدَ غَرمَ الفُؤادُ مِنْ الغَرامِ

جميعُ النَّاسِ يا رَبَّ الأَنامِ

إليكِ نَضُجُ في الكُربِ العَظامِ

يغيثُ عبادَهُ غوثُ الكَرامِ

ولولا فَضلُهُ فالأمرُ حامٍ

برحمتهِ ورأفتِهِ اعتصامي

يجاهرُ بالخَلافِ على الدَّوامِ

به نَرجو السَّعادَةَ في الختامِ



مع وسنة حميدة

■ نصوص تختبر أفهام الشعراء والنقاد بما تحمله من جماليات الضاد

■ لغة جديدة في شعر الشيخ محمد بن راشد يدغدغ بها مشاعرنا

والقيام والذكر وقراءة القرآن، وفيه تغلق أبواب الشر وتصفد الشياطين، وفيه ساعة تستجاب فيها الدعوات ألا وهي ساعة ما قبل الإفطار، وفيها فرحة تساوي فرحة المؤمن عند لقاء ربه، ألا وهي فرحته عند فطره.

نشر الفضائل

ومما يشكر عليه الشيخ محمد بن راشد أنه أصبح يوظف شهر الصيام لنشر الفضائل وسرد سير الصالحين، وتاصيل القيم في نفوس الكبار والصغار، وهذا ما يغفل عنه الكثير من الحكام، فمرة يكتب لنا مسابقات رمضانية حول اللغة الخالدة، ومرة يكتبها حكماً وأحكاماً فقهية، ومرة يكتب عن المصطفى عليه الصلاة والسلام سيرة نبي السلام، ومرة يكتب أناشيد للذب عن الصحابة الكرام، ومرة يبين إعجاز سور القرآن وآياته. هذه المكارم في الحقيقة من حاكم مشغول بهوم الداخل والخارج كمثلها، تعد ابتداءً وإبداعاً، واستثماراً لطاقات الصغار

ومما أجدل قول أبي بكر الوراق: الرجاء ترويح من الله لقلوب الخائفين، ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم، والرجاء ثلاثة أقسام: رجاء في الله، ورجاء في سعة رحمة الله، ورجاء في ثواب الله. واستخدم أيضاً العفو/ والحلم/ والاعتصام/ والجود/ والفضل/ والرحمة/ وهي منها الرحمة الامتنانية والرحمة الوجودية كما يقول علماء التصوف.

لغة جديدة

كل هذه المفردات، أعدها أنا لغة جديدة في شعر الشيخ محمد بن راشد يدغدغ بها مشاعرنا، وهو يدري أننا كما قال الشاعر:

محل الإقامة.

وبالمناسبة يقول علماء التصوف: لا يجوز للعبد أن ينتقل من مقامه دون أن يقضي حقه، فمثلاً: أول المقامات عندهم التوبة ثم الإنابة ثم الزهد ثم التوكل، ولذا قال شاعرهم:

**إذا ما صح للعبد المقام
يصح له الدوام على الصلاة**

ومن مصطلحات الصوفية أيضاً كلمة/ غوث الكرام/ أو الغوث عموماً- والغوث عندهم هو القطب الذي يلتجأ إليه وحده، واستخدم أيضاً مصطلح / الرجاء / وهو عند أهل التصوف معروف أيضاً، لأن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء.

إن في بُردَي جسماً ناحلاً

وأظن أن هذه المداعبة وهذه الدغدغة من الشيخ محمد بن راشد، تمهيد للون شعري جديد، سوف يدهم به ساحاتنا التي اشتاقت إلى ما يرقق الوجدان، فما أجمل شعراً كشعر رابعة العدوية التي تناجي ربها وتقول:

**أجلك حيين حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا**

وأختم القول ببيت الشيخ محمد بن راشد في قصيدته:

**فيا من خيره شمل البرايا
لك التقديس باسمك يا محيب**

معاً بآلات موسيقية وبغيرها من دون تكلف. وبلفت نظرنا إلى شيء آخر أيضاً، وهو أن قصائده لا تخلو من بعض جماليات لغة الضاد، انظر إلى: مُقامي بضم الميم/ ومُقامي بفتح الميم/ غرمت بذاته أي تعلقْتُ/ وغرم الفؤاد أي تحمّل المشقة والعذاب.

مقامات التوبة

وفي هذه القصيدة أيضاً، لم يخل شعر سموه من المصطلحات الصوفية، وخذ على سبيل المثال: مقام/ فالصوفية عندهم مقام الصابرين غير مقام المتوكلين، وعندهم باب يسمى باب المقامات والأحوال، والمقام بضم الميم هو الإقامة وبالفتح محل الإقامة.

وبالمناسبة يقول علماء التصوف: لا يجوز للعبد أن ينتقل من مقامه دون أن يقضي حقه، فمثلاً، أول المقامات عندهم التوبة ثم الإنابة ثم الزهد ثم التوكل، ولذا قال شاعرهم:

إذا ما صح للعبد المقام يصح له الدوام على الصلاة

ومن مصطلحات الصوفية أيضاً كلمة/ غوث الكرام/ أو الغوث عموماً، والغوث عندهم هو القطب الذي يلتجأ إليه وحده، واستخدم أيضاً مصطلح / الرجاء / وهو عند أهل التصوف معروف أيضاً، لأن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء.

جماليات لغة الضاد

ولو نظرنا إلى ابتهاج سموه الثاني بعنوان «مقامي»، نجد أنه ليس أقل من الأول، فمن جهة نرى تمكنه من قرض شعره ببحور مختلفة، فقبل ثلاثة أيام كتب قصيدة «أهلاً رمضان» على وزن بحر الكامل، واليوم كتبها على وزن بحر «الوافر».

وتم إننا نرى أن الشيخ محمد ينتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة، فبدأ يستخدم في شعره المفردات السهلة القريبة من فهم الصغير، فهو إذا يكتب نبطياته التي فيها إرضاء لفئة من الناس، ويكتب أيضاً قصائده الفصيحة ليختبر فيها أفهام الشعراء والنقاد، ويكتبها بلغة سلسة أيضاً ليردها المنشدون والأطفال

ابتهاج «مقامي» .. أنساق في العشق الإلهي

موسم التضرع والعبادة، ومنذ بزوغ الإسلام والشعراء يقرضون أشواقهم ورجاهم الخالص، المرتبط بحب الله والتقرب إليه وبالصفاء الروحي والسمو بالذات، ومن ضمن ذلك ما كتبه شاعر الرسول الكريم حسان بن ثابت من نصوص، وكذلك أشعار الصحابي عبد الله بن رواحة، وفي عصر لاحق من عصور الأدب العربي، مع فطاحل من الشعراء مثل عبد الرحيم البرعي، ومحمد بن سعيد البوصيري وابن الفارض الذي قدم مدرسة خاصة في نسقها الفلسفي، ضمنها أرق وأعذب الكلمات، وبلغ في عشقه مقامات عالية.

أنساق اللغة

على مستوى اللغة، نؤع صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد في ابتهاج «مقامي» بين ما يقتضيه الابتهاج من سهولة وبساطة في المفردات، وبين العمق في النفس الشعري الذي يفرضه المقام، فالمتابع لمدونة شعر العشق الإلهي يلاحظ دائماً تحويم الشعراء في سياقات، تكون أحياناً وعرة المسالك، من حيث المعنى والنسق، لكن سموه، عبر تجليات سهلة مُمتعة، وفي بالعرض، وقَدّم ابتهاجاً حمل سلاماً شعرياً خالصاً، ورجاء وتضرعاً، عند باب مُقتدر كريم، إليه يلجأ الناس، وهو من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وهو الذي قال: «ادعوني أستجب لكم»، فكان خير من يُرجى، مغيث في غوْثه، كريم في جوده، لطيف في حكمه، عدل في قضاته، لولا فضله ومغفرته ما وسعت البرايا رحمة.

مدارس الرّوح

مع انبلاج أنوار رمضان يحلو الشعر، وتحلو الابتهاجات خاصة، لأنه

قراءة – محمد بابا

القصيدة صوت النفس، وصدى الروح، والشعر رهافة القلب والإحساس والشعور، وتكون تلك الكلمات المُنمّعة المُموّسقة التعبير والنسق، التي تقطر من بين الضلوع، مُنسابة كخزير شلال ماء أجمل ما تكون، إذا اكتست بروحانية خالصة، وليست من لبوسها سحر الصبابة والعشق الإلهي. يوم أمس، وضمن ابتهاجات شعرية لصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، قدّم سموه فاكهة شعرية رمضانية تحلو في سمر رمضاني، وجاء ابتهاج «مُقامي» ذو القافية الميمية المُنمّعة شجياً، مترعاً بعشوق إلهي، يفيض بصبابة المُحبين وهم يقفون في رحاب الله، وتجليات ملكوته، من فصوص الكلام ينتقي أعذب المفردات ويصوغها جيداً وتوئهاً.

فن الابتهاالات

قراءة نص كهذا تستدعي تاريخ النقد والأدب العربي بأطيافه كافة، وحضور الابتهاالات في الأنساق الشعرية العربية، حيث عرف الشعر العربي الابتهاالات والمدائح، وتعددت القصائد التي تشرّبت من عيون هذا الفن الذي ضمّنه الشعراء ما يعترهم من خشوع وتضرع إلى الله وطلب للعون، وقد أخذت كلمة «ابتهاج» لغوياً اشتقاقاً يحمل المعنى ذاته، ويقدم الحملوات نفسها، وتكاد تشبه الابتهاالات فناً شعرياً آخر ظهر في فترة ازدهار الأدب الأندلسي،